

قصة

قصيرة

الوهم

رغم طول المدة التي قضاها في التعليم الثانوي والتي جاوزت الأربعين عاما، ورغم انهيار حالته المعاشية والاجتماعية بسبب تضائل القدرة الشرائية لراتبه الشهري الذي لا يتجاوز الثلاثمائة دينار، قبالة الارتفاع المتزايد لأسعار الحاجيات والأشياء، فإنه ظل متشبثا بشيء واحد معتزا به أشد الاعتزاز: إنه مراقب امتحانات من نوع نادر، لم تغفل منه حالة غش واحدة عبر خدمته الطويلة، بل لم يحدث وأن سولت لطالب نفسه أن يقوم بمجرد محاولة في قاعة يراقب فيها ذو النون عبد الحميد.

والطلبة الذين تمرسوا على الغش ونفذوا من أصنافه وفنونه الكثير مع هذا المدرس أو ذاك، ما كانوا يجروون على مجرد التفكير بما اعتادوا عليه، عندما يكون ذو النون مراقبا في هذه القاعة أو تلك، أو مسؤولا عنها.

كانت عيانه تحديقان كالصقر في وجوه המתحنيين وانحناءات أعضائهم ويتحسس من بعيد ودون أية ضرورة للاقتراب ما إذا كان الطالب مستسلما لجبروته، مسلما به، أو أنه يتشبث ولو بخيط رفيع، أو ثغرة ما، قد يتلقى منها ما يعينه على النجاح أو يقربه من حافته. لكنه كان يملك شفرة سرية تعطيه مفاتيح كل حركة تصدر عن هذا الطالب أو ذاك، فكان يسارع في حصارها قبل أن يقع المحذور. وكان دائما يرفع شعاره المعروف: «الوقاية خير من العلاج» يحدث به المدير والزملاء، ويلوكة في بيته مع زوجته وأولاده.. أن ترحم الآخرين

.. يقول باعتدال - اقطع عليهم سبل الإغواء.. أرغمهم على سلوك الطريق المستقيم.. سيجدون أنفسهم بمرور الوقت خارج دائرة الشيطان.. حتى لو كان أحدهم لا يؤمن بأية قيمة جادة فإنه سيجد نفسه بسلطة الرقابة الصارمة مرغما على سلوك المحجة! طالما قلت له: إن هذا وحده لا يكفي، فما لم يملك المرء حصانة داخلية تصدّه عن الخيطة فإن ألف عين لن تقدر على ضبطه وهو يقترف الإثم، أو تصدّه عنه وهو ينزلق إليه.



انطلاقاً من قناعاته الراسخة كالجبال ماكان يرغب في مناقشتي مكتفياً بالتذكير بمبدئه المعروف «الوقاية خير من العلاج» يقولها بحسم محاولاً إنهاء النقاش.

— ولكن العلاج ضروري هو الآخر، وقد تجعله الضرورات أحيانا يسبق الوقاية

— لا أفهم لغة اللف والدوران.. والقول الفصل لما يجري في الميدان!

وكان بذلك يضطرنني إلى السكوت وأنا أتذكر الأربعين عاما التي لم تشهد حالة غش واحدة في قاعة يقف فيها ذو النون عبد الحميد بقامته الفارعة ونظراته الحادة وجدّه الذي لا يخترقه شيء في العالم عبر ساعات الامتحان.. يبدو أنه لا يسمح لنفسه حتى بالاسترسال في تيار الوعي الباطني، حتى باستعادة ذكرى سعيدة أو لحظة حزن موهلة في أعماق النفس وإلا كيف يفسّر الإنسان هذا الحضور المذهل قبالة الممتحنيين؟

والحق أن بعض المدرسين كانوا يغارون منه، وكانوا يحاولون، بطريقة أو أخرى، التعقيم على تألقه في مسرح الامتحانات، وقد يلجأ بعضهم إلى الدسّ عليه وتشويه سمعته بأنه طالما تغاضى عن



بقلم:

د. عماد الدين خليل

نظر بعضهم إلى بعض وكأن ما يقوله الأستاذ من الأمور
الاعتيادية التي لا تقتضي حتى مجرد التذكير
— إنها سمعتم أيها الزملاء!
وهمس أحد المدرسين في أذن جاره:
— إنه يريد أن يعلق هزيمته المحتملة على مشاجبنا
فأجاب الآخر:
— قليلاً من حسن الظن يارجل.. والمهم أن نتعاون جميعاً من أجل
إنجاز المهمة بسلام. ودوى صوت ذي النون مرة أخرى:
— كنت أقول دائماً بأن الوقاية خير من العلاج
ردوا عليه جميعاً:
— بالتأكيد
— فهل ثمة ضرورة — إذن — لأن أعطيكم صمّامات الأمان أو
أحدثكم عنها؟ نظر بعضهم إلى بعض مرة أخرى وكانهم لم يفقهوا
شيئاً وأدرك هو ما كان يجول في خاطره فأردف:
— هنالك في الحقيقة منظومة من الأفعال يحتمل ورودها لدى
الطلاب، إذا أحطتم بأبعادها النفسية والمادية علماً، وقفتم بالمرصاد
لأية محاولة مأكرة وقضيتهم على الفتنة في مهدها.
قالوا جميعاً وهم لا يزالون يضطربون في دائرة الغموض:
— إن شاء الله
— على أية حال لن تكونوا وحدكم.. لن يكون أي واحد منكم
بمفرده عبر ساعات المراقبة، سأكون حاضراً معكم جميعاً، مع كل
واحد منكم، وسأبدل جهدي، بمعاونتكم طبعاً، من أجل اجتياز المهمة
بسلام..
نوع من الدهشة الممتزجة، ربما بشيء من اللامبالاة والازدراء،
غمرت وجوه بعض المدرسين، فليست المسألة برمتها مهمة كبرى
تقتضي هذا القدر المبالغ فيه من الشد النفسي والاهتمام الذي
يتجاوز حدوده الطبيعية إلا التكلفة الزميمة، ما الذي يريده ذو النون؟
تساءل بعضهم ممن لا يعرفونه جيداً، ولا يعرفون حلمه الملح بأن

العديد من المحاولات لكي لا يقال أن هناك من تحدّثه نفسه بالغش
في حضوره.

وكان بعض المديرين — لسبب أو آخر — يصدّقون شائعات كهذه
كانت تحاصره بين الحين والحين فتكدّر خاطره ليوم أو يومين ثم
مايلبث أن يغيبها في طبقة ما من نفسه مواصلاً اجتياز رحلته
صوب ما كان يحلم به: أن يكمل نصف قرن من الخدمة وألا تكون
صفحته عبر نصف القرن هذا قد علقت بها ذرة واحدة من غبار..
والغبار في قناعته هو التساهل مع الغش، لأنه كما كان يردّد دائماً
واحداً من أبشع أنواع اللصوصية، إنها سرقة مزدوجة ولن يسمح
بها إنسان يملك ذرة من خلق أو دين.

استدعاه المدير يوماً وأعاد على مسامعه بعض ما يشاع عنه.

— تلك هي سنة الحياة..

قالها بالاعتداف نفسه وبالرغبة في إنهاء الحوار بأقل الكلمات، ثم أردف:

— والعبرة بالنتائج

تساءل المدير عن المقصود فأجاب:

— إنه لأمر طبيعي بالنسبة لمن اخترقوا أكثر من مرة بمحاولات
الغش، أن يلطخوا سمعة مدرّس لم يخترق في حياته التعليمية مرة
واحدة!

كان المدير الجديد يحسده هو الآخر لأنه — هو شخصياً — اخترق
أكثر من مرة عبر عمله التعليمي ولذلك قال:

— إننا نقدر جهودك أيها الأستاذ ولكن يتحتم عليك أن تكون حذراً
من الثقة الزائدة..

امتعض ذو النون ولكنه أصبح بقوة المران يعرف كيف يخفي
انفعاله وقال:

— ليس مجرد ثقة زائدة كما يبدو للوهلة الأولى، ولكنها شبكة من
الممارسات التي تقتضي مشقة وصبراً، وهي قبل هذا إحساس
بالمسؤولية، وخائن لمهنته من لا يملك هذا الإحساس!

وحان الموعد الدوري لامتحانات الثانوية العامة (البكالوريا) في
حزيران من ذلك العام، لإحدى القاعات الكبرى، لم يكن قد بقي أمامه
سوى عام أو بعض عام لإكمال رحلة الخمسين عاماً التي كافح من
أجل بلوغها بسجل أبيض لم يمسه سوء!

كان يحس أن عليه بذل جهد استثنائي لأن لدغة الأفعى قد تأتي
في اللحظة الأخيرة، ومن حيث لا يتوقع إنسان. وكان يحدث نفسه
وهو يدلف صبيحة اليوم الأول إلى القاعة: ترى لو حدث وأن وقع
المحذور، أليكون بمقدوري أن أزيل مرارته عبر سني العمر المتبقية؟

من أجل ذلك دعا إلى عقد اجتماع استثنائي لمجموعة الملاحظين
التي كانت تعمل بمعيتها في القاعة نفسها..

— عليكم التزام أقصى درجات الحذر.. قالها لهم

يجتاز رحلة الخمسين عاما دون أن تطلع سجله نقطة غش سوداء! آخرون قدروا حرص الرجل وأسروا في أنفسهم أن يبذلوا قصارى جهدهم، فئة ثالثة كانت في منزلة بين المنزلتين فلم يكن لديها موقف محدد وكانت ترى ضرورة أداء الواجب ولكن ليس في حدوده القصوى، والمدرسون تطحنهم الأزمة المعاشية وانهيار مواقعهم في المجتمع بحيث يصير الإخلاص الزائد في العمل نوعاً من السذاجة أو الغباء!

وبدأ الامتحان. كانت اللغة العربية — كالعادة — هي المادة الأولى، وعندما غادر الطلاب القاعة، شد ذو النون على أيدي مجموعته بحرارة وقدم لكل واحد منهم أعمق آيات الشكر والامتنان، وقال وهو يخاطبهم جميعاً:

— لقد بذلتهم ما في وسعكم فبارك الله فيكم.. ها نحن نجتاز العقبة الأولى بنجاح، والبقية تأتي..

قال أحدهم بشيء من الاستفزاز:

— المهم أن نجتاز الإنجليزية والرياضيات!

لعب الفأر قليلاً في جيب ذي النون.. هاجس من الكآبة والقلق، وقال في نفسه: إن لدغة الأفعى لا تؤتمن على أية حال وأنها قد تنفث سُمها في اللحظة الأخيرة!

لحظه الآخرون يدمدم مع نفسه فتابعوه بنظراتهم، لكنه لم يكثر لهم، كان تركيز نظراته على الطلبة عبر ساعتين بكاملهما قد فصله بالكلية عن عالمه الباطن، عن تيار وعيه المدفون في الأعماق، وما هو ذا بعد مغادرة آخر الطلبة ينتفض فجأة ويهدر كالموج الصاخب. وقال في نفسه: لا يعقل أن أتعثّر أو أسقط وأنا على بعد أمتار من خط النهاية! وسمّهم يقولون:

— نستحيك عذراً، فليس ثمة مبرر لبقائنا في القاعة .

— لكم أن تغادروها ولكن تذكروا أن المهمة الأكثر صعوبة لم يحن دورها بعد.. فهناك الإنجليزية والرياضيات..و..

قاطعهم أحدهم وهو يهم بمغادرة المكان:

— سنكون عند حسن الظن إن شاء الله وسنبذل ما في وسعنا وقال المدرّس إياه بلهجة الاستفزازية:

— ليس من المعقول أن نبذل ثيابنا قبل المطر.. وعاد ذو النون للتذكير بمبدئه الثابت:

— الوقاية خير من العلاج!

وقال المدرّس بشيء من الامتناع:

— كان علينا أن ننفذ هذا المبدأ على أنفسنا أولاً

تساءل ذو النون بدهشة:

— كيف؟

أجاب المدرس باستياء :

— أن نفكر عشرين مرة قبل أن نضع أنفسنا في مصيدة التدريس، قال ذو النون وكأنه يطرح مسلمة تفرض نفسها على الجميع:

— كان التدريس من أكثر المهام نبلاً في هذا العالم!

— ليس مع الجوع والمهانة وقلة الاحترام.

— أعوذ بالله!

— نبل الوظيفة أيها الأستاذ من نبل شاغليها.. وشاغلها أريد لهم أن يكونوا في الدرك الأسفل!

كعادته لم يشأ ذو النون فتح باب الجدل على مصراعيه، وقال منهياً الموضوع:

— نحن الآن في قاعة الامتحان.. إزاء مهمة يتحتم أن ننجزها بإخلاص.. هذه مسؤوليتنا جميعاً، أما المسائل الأخرى فلکم أن تناقشوها مع من يهمهم الأمر فهي ليست من اختصاصي على أية حال.

في امتحان اللغة الإنجليزية، في اليوم التالي، جرت محاولة للغش بين طالبين متجاورين، كُشفت في اللحظة المناسبة، ولم يستدع الأمر إخراجهما من القاعة، لأن أي تسرب للمعلومات لم يحدث على الإطلاق.

وقال ذو النون للمراقب الذي أطفأ النار قبل اندلاعها:

— بارك الله فيك!

كان صوته متيبساً بعض الشيء، وسرت في أوصاله وهو يذرع الممر الطويل رجفة خفيفة مما تصوّره برداً.. وعاد الهاجس المقلق لكي ينشب أظافره الحادة في جملته العصبية التي بدا عليها التوخر والإعياء لأول مرة منذ خمسين عاماً!

احذر لدغة الأفعى، قال في نفسه، إنك على بعد أمتار من خط النهاية فاحذر السقوط، وحاول أن تجتازها بسلام.. بعدها ستكون رحلة الخمسين عاماً قد توجت بالنجاح.. وسترتاح!

في اليوم الثالث جاء دور الرياضيات!

غادر البيت متيمماً صوب مركز الامتحان، واستأجر سيارة (تاكسي) عتيقة انطلقت به إلى هناك وهي تترنّ وتنفث رشقات من الدخان الاسود.. أحسّ بشيء من الانقباض في قلبه، وضيق في تنفّسه.. استعاض بالله في محاولة لاستعادة سويته النفسية.. لكن الانقباض ازداد عتمة وإحكاماً.

دخل القاعة وراح يوزّع نظرات متوسلة إلى المراقبين.. لأول مرة في حياته، ينزل قليلاً عن موقعه العالي، ويتخلى عن إصدار الأوامر والتعليمات ويكتفي بتوزيع نظرات التوسّل والرجاء..

أدرك زملاؤه ما الذي يريد أن يقوله، ولكنهم لم ينبسوا ببنت شفة، كأن عدوى الخوف من الجهول حاصرتهم جميعاً فعقدت

ألسنتهم.. لكن المدرّس إياه مالبث أن اخترق جدار الصمت بلهجته الإستقزائية:

— عند الامتحان يكرم المرء أو يهان!

وأراد أحدهم، بقوة الخوف نفسه من المجهول، أن يبعد الكرة عن رمى الزملاء ويضعها في شبك الطلبة:

— هم ومدى استعدادهم للامتحان يا عبد العزيز.

أجاب وهو يمسح نظارته بقطعة من ورق السيكاي:

— ونحن ومدى استعدادنا للملاحقة الغشاشين.

وقال ذو النون في نفسه: إنه فآل سييء.. ولكن لا بأس وما لبث أن رفع صوته وقد أحس بهم وهم يضبطونه متلبساً بالتحدث إلى نفسه:

— هامي ذي الحلقة الصعبة الأخيرة.. وبعدها يكون كل شيء على مايرام!

— طالما فقد اللاعبون الكبار فرصتهم في اللحظات الأخيرة هذه، قال عبد العزيز وهو لا يزال يمسح نظارته بورقة السيكاي.. وحاول ذو النون من جهته أن يقطع الطريق عليه وينهي الحديث.. فرفع صوته:

— تفضلوا أيها الزملاء وليأخذ كل منكم مكانه.. هاقد بدأ الطلبة يتدفقون على القاعة .

مضت الدقائق ببطء ولكن ليس ثمة ما يدعو للقلق. كانت عينا ذي النون الصقريتين تدوران بسرعة وحدة لكي تضعا طلبة القاعة جميعا في دائرة الحضور الصارم الذي لا ينفذ عنه شيء.. ولعله نسي، وهو يرمي بثقله في هذه الجبهة أن نقطة الضعف.. الثغرة قد يتسلل منها الهواء البارد ربما تكون أحد زملائه أنفسهم! ولم يخطر على باله ألبتة أن بعضهم يعاني من حصار الجوع والمسغبة، وأن مقاومة الإنسان لها حدود، وأن منظومة القيم نفسها قد تنهار في أية لحظة وتترك الطريق مفتوحاً للبيع والشراء!

تذكر للحظات عبد العزيز حيّاي واستياءه الدائم الذي كان يقوده أحياناً إلى الإستهتار بكل الضوابط، وتذكر كلمته الماثورة التي طالما ردها بمناسبة وبغير مناسبة: الجوع لا يرحم. ولكن لم يخطر على باله أن يمارس عبد العزيز أي قدر من التساهل في مهمته المقدسة هذه، وأنه حتى لو حدث نفسه بذلك فإن عيني المراقب الأقدم وجدّ الزملاء كفيلاً بسدّ الثغرة وملء الفراغ.

وودّعهم جميعاً بامتنان وهم يغادرون القاعة بعد خروج آخر الطلاب.

كان عبد العزيز أول المغادرين، ولم يأبه حتى بتوديعه.. كان حزينا مهموماً كعادته. وقال ذو النون في نفسه: لا بأس مادامت الأمور قد سارت على ما يرام.

في مساء اليوم التالي استدعي إلى مديرية التربية.. خمن أن يتلقّى هناك بعض التعليمات، أو أن يشارك في أحد المجالس التحقيقية ضد مراقبين من قاعات أخرى. ومن يدري، فلعله يفاجأ بكلمة شكر وتقدير من المدير نفسه على الانضباط المدهش في القاعة التي يشرف عليها.

لم يشأ المدير أن يطرح مقدمات وقال:

— ثمة تسرب للمعلومات حدث في قاعتك.. محاولات غش.. واسعة النطاق، وهي حالة خطيرة لن نسمح لها أن تمر دون حساب!

اخترقت كلمات المدير لحمه وأعصابه كالنصل الحاد، وأراد أن يتكلم، ولكن المدير وقد كاد الغضب أن يخرج عن اتزانه، أسكته بإشارة من يده، قال بانفعال اشد وهو يقلّب أوراق عدد من الدفاتر الامتحانية :

— إننا نعرفك جيداً يا ذا النون.. يكفي أن ألقى نظرة على سجلك الحافل بكتب الشكر والتقدير.. — ولكن..

قالها ذو النون وهو يغوص في بئر عميق.. وقاطعة المدير مرة أخرى:

— ولكن ذلك لا يعني أن نغض الطرف عما جرى في قاعتك يوم أمس.

دفع إليه مجموعة من الدفاتر الامتحانية وأردف بالعصبية نفسها: — خذ.. أنظر — إنها المعلومات نفسها تكشف عن محاولة مدبرة للتسريب.. والدليل القاطع أن الأخطاء هي نفسها في الدفاتر الستة! غائصة في الظلمات تذكر عبد العزيز حيّاي.. السخريّة والاستياء والجوع الذي لا يرحم وعمليات البيع والشراء التي يقود إليها بعد تدمير آخر مرتكزات المقاومة في شبكة القيم..

كان متألماً حتى النخاع.. حزينا يائساً.. بحيث إنه لم يشأ أن يجيب المدير بكلمة واحدة.

ها هي ذي الشهادة القاطعة باختراق حاجز الخمسين عاماً تقطع الطريق عليه.. تلتغ صفحاته البيضاء.. تدفعه إلى التعثر والسقوط وهو على بعد أمتار من خط النهاية.

ونفض قائماً، محني الظهر، وأعاد الدفاتر إلى المنضدة التي تفصله عن المدير وهو يقول بصوت متلجلج:

— إنها معادلة صعبة أيها الاستاذ!

نظر إليه المدير وكأنه لم يدرك ما يقول فأردف ذو النون بنبرة توحى باستسلامه الكامل:

— لقد كنتُ واهماً!

